رسائل ابن الخطيب السلطانية

دراسة تحليلية

د. رزق عمري بركات
أستاذ مساعد الأدب العربي
بقسم اللغة العربية
كلية التربية – جامعة دمنهور

المقدمة :

يعد لسان الدين بن الخطيب الأندلسي بحرًا من بحور العلم في الأدب والشعر والفقه والموسيقى والطب وغير ذلك من العلوم، فقد تلألأت غرناطة بأنوار علمه، مما جعل القدماء والمحدثين يعدونه خزانة للعلم والأدب، فقال عنه المقري "هو الوزير الشهير الطائر الصيت"(١)، وكذا قال أحمد ضيف "فقد كان عالمًا وفقيهًا وشاعرًا وكاتبًا. وإن لم يتفوق في شيء تفوقه في الأدب. حتى كان من أئمته".(٢)

وقد هيأت له فصاحته وموهبته الأدبية الارتقاء إلى منصب الوزارة حيث استوزره السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل سنة (٧٣٣هـ) ثم ابنه الغني بالله محمد من بعده، فعظمت مكانته فشعر بسعي حاسديه في الوشاية به، مما جعله يكاتب السلطان عبد العزيز بن المريني يخبره برغبته في الرحلة إليه فترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق ومنه إلى سبته ثم تلمسان (٧٧٣هـ) ولقد بالغ السلطان عبد العزيز في إكرامه وأرسل سفيرًا من لدنه إلى غرناطة بطلب أهله وأولاده فجاؤوه مكرمين، واستقر بفاس حتى تولى السلطان المستنصر أحمد بن إبراهيم، بمساعدة الغني بالله صاحب غرناطة مشترطًا عليه شروطًا منها تسليم ابن الخطيب، فقبض عليه المستنصر وأرسل الغني بالله وزيره ابن زمرك إلى فاس وأحضر ابن الخطيب ونصبت له المحاكمة فأفتى بعض الفقهاء بقتله لاتهامه بتهمة الزندقة، فأعيد إلى السجن ودخل عليه بعض الأوغاد ليلاً فخنقوه.

---

(١) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، ج٧٧ وما بعدها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٨٦م.

(٢) أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط٢، ص٢٤٢، ١٩٨٨م.

ولقد ترك لنا ابن الخطيب تراثًا حافلاً من طب وسياسة وتصوف وغيرها، وقد بلغت ما يقرب من ستين مؤلفًا ما بين مطبوع ومخطوط، ومنها ديوانه الـذي يجمع معظم شعره وهو "الصيب والجهام، والماضي والكهام"(٣)، وكذا كتاب ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب(٤) الذي يضم معظم رسائله وخاصة التي بعث بها السـلطان يوسف أبو الحجاج ملك غرناطة إلى معاصره السلطان أبي العنان ملك المغرب في شئون مختلفة، ولكنَّ حظه العاثر الذي طارده إلى فاس جعل حساده يحرقون كثيرًا من مؤلفاته.

وعلى الرغم من إحراق هذه المؤلفات فإنه نال حظًا وافرًا من المكانة التي استحقها وإن لم ينل حظه في كتابات المحدثين وخاصة الرسائل السلطانية التي تعد من أهم كتاباته النثرية، وكان ذلك من الأسباب التي أغرتني بالكتابة عنها لما لهـا من أهمية عظيمة في كشف أهم الملامح السياسية في عصره، وكان عليّ أن أنقب عن هذه الرسائل. ولحسن الحظ فقد أبقت الأيام معظمها في كتابي الريحانة ونفـح الطيب. وقد عولت عليها في هذه الدراسة التي تستهدف كيفية بناء هذا النوع مـن الرسائل استنادًا إلى منهج موضوعي ينأى عن التعصب والهوى ويقيم أحكامه على أساس الاحتكام إلى النص النثري دون أن نحمله ما لا يحتمل، وقد اقتضت طبيعـة البحث أن يُقَسَم إلى خمسة مباحث صغيرة ونموذج تحليلي وخاتمة، درسـت فـي المبحث الأول بناء الرسالة السلطانية عند لسان الدين بن الخطيب، واختص المبحث الثاني بدراسة اللغة والأسلوب، وجعلت الثالث للاقتباس والتضمين، وانفرد المبحث الرابع بدراسة بناء الصورة الفنية في الرسائل السلطانية لابن الخطيب، وخصصت

(٣) الصيب والجهام، والماضي والكهام، تحقيق، د. محمد الشريف قاهر، نشر فـي الجزائـر، ١٩٧٥م.

(٤) تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة.

المبحث الخامس لدراسة التكوين البديعي في رسائله السلطانية. وأخيرًا قمت بتحليل رسالة كاملة لاستخلاص أهم ما تتميز به من سمات فنية، ثم ختمت البحث بعرض أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم قائمة عرضت فيها لأهم المصادر والمراجع التي رجعت إليها، والله أسأل أن يحقق هذا البحث ما استهدفته وهو إبراز أهم السمات الفنية التي تشتمل عليها الرسائل السلطانية في نثر ابن الخطيب.

المبحث الأول
بناء الرسالة السلطانية عند ابن الخطيب

تقوم الرسالة السلطانية عند لسان الدين على نمط متقارب المعالم، فهي تبدأ غالبًا بذكر المقام "مقام السلطان المُرسل إليه وتمجيده ونعوته بأفضل النعوت التي تليق به. ومن ذلك ما ورد في مقدمة رسالة على لسان سلطانه إلى أحد سلاطين بني مرين قال فيها "المقامُ الذي يُصرْخ ويُنْجِد، ويَتُهم في الفضلِ ويُنجِذ، ويُسعف ويُسعد، وينجد (بدال مهملة)، ويُبْرِق في سبيل الله، ويُرْعِد، فيأخذ الكُفْرَ من عزماته المقيمُ المُقْعِد حتى يُنجِز من نصر الله تعالى المَوْعِدْ مَقَامُ محل أَخِينا الذي حُسْنُ الظنِ بمجده جميل، وحَدُّ الكفر بِسَعْدِه كليل، وللإسلام فيه رجاء وتأميل ليس للقلوب عنه مَمِيل".(٥)

ومثل ذلك أيضًا رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني لنصرة الأندلس يقول في بدايتها "المقام الذي يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعددت المقاصد، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت الموارد، وتشمل عادةُ حلمِهِ وفضله الشارِد، ويَسَع وارِفُ ظله الصادر والوارد والغائب والشاهد، ويعيد من نصر الله للإسلام العوائد، ويسدُّ الذرائع ويدرُّ الفوائد".(٦)

ومن تلك الاستهلالات أيضًا قوله في مقدمة رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس : "المَقامُ الذي أقمارُ سعدِه في انتظامٍ واتساق، وجيادُ عزّه

---

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، المجلد الرابع، ص٤٠٤، دار صادر، بيروت.

(٦) المصدر السابق، ص٤١٢.

إلى الغاية القصوى ذاتُ استباق، والقلوب في حبه ذات اتفاق، وعنايـــة الله تعـــالى عليه مديدة الرِّواق، وأياديه الجمة في الأعناق، ألزم من الأطواق، وأحاديث مجـــده سَمَرُ النوادي وحديث الرفاق".(٧)

وبعد ذكر مقام المُرسل إليه ونعته بالأوصاف التي تليق بمقامـــه ومكانتـــه يقول: "محل أخينا السلطان كذا ابن السلطان كذا ابن السلطان كذا أبقاه الله رفيعًا ... الخ".(٨) وقد جعل ذلك من أساسيات البناء بعد ذكر المقام.

ثم يذكر مكان الإرسال كنقطة أساسية أيضًا من نقاط البناء فيقـــول : "مـــن حمراء غرناطة حرسها الله".(٩)

وهو يسهب ويطنب بشكل ملحوظ بين تلك النقاط السابقة وذلك فـــي كـــل رسائله السلطانية، ثم يأتي بعبارة "أما بعد حمد الله"، ثم يبدأ بعـــد ذلـــك مضـــمون الرسالة السلطانية التي توزعت ما بين :

١- وصف حال الأندلس وما آلت إليه من خراب ودمار على أيدي الصـــليبيين وذلك لاستنهاض الهمم الذي يصل في بعض الأحيـــان إلـــى الاستصـــراخ والاستغاثة لإنقاذ الجزيرة وأهلها من يد الكفر والطغيان.

٢- التهاني بالمناسبات والرد على المخاطبات.

---

(٧) نفسه، ص٤١٥.

(٨) المصدر السابق، ص٤٠٥، ٤١٢، ٤١٦، ٤٢٠.

(٩) وكذا في الريحانة، المجلد الأول، ص٣٩٨.

مضامين الرسائل السلطانية في نثر ابن الخطيب :

[١] وصف حال الأندلس – واستنهاض همم الدولة المرينية :

ومن ذلك قوله في رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين "فإننا في هذه الأيام أهمنا من أمر الإسلام، ما رنّق الشراب ونغص الطعام، وذادِ المنام، لما تحققنا من عمل الكفر على مكابدته، وسعي الضُلاَّل – والله الواقي – في استئصالِ بقيته، وعقد النوادي للاستشارة في شأنه، وشروع الحيل في هَدِّ أركانه. ومَنْ يؤمّل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبث الشكوى، وأهله في غفلة ساهون وعن المغبة فيه لاهون، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم وعاجلهم عن آجلهم، وطول الأمل عن نافع العمل ... فلما رأينا أن الدولة المرينية التي هي على مَرِّ الأيام شَجَا العدا، ومتوعد من يكيد الهدى وفئة الإسلام التي إليها يتحيز ... أردنا أن نخرج لكم عن العهدة في هذا الدين الذي وسَمَت دعوته وجوه أحبابكم شملهم الله تعالى بالعافية وتشبثت به أنفسُ من صار إلى الله تعالى من السلف تغمدهم الله بالرحمة والمغفرة، وفي هذا القطر الذي بلاده ما بين مكفول يجب رَعْيُه طبعًا وشرعًا، وجار يلزم حقّه دينًا ودنيا وحمية وفضلاً، وعلى الحالين فعليكم بعد الله المُعَوَّل، وفيكم المؤمَّل، فأرْعونا أسماعكم المباركة نَقُصَّ عليكم ما فيه رضي الله والمنْجاة من نكيره، والفخر والأجر وحفظ النعم، وهو أن هذا القطر الذي تعددت فيه المحارب والمنابر، والراكع والساجد، والذاكر والعابد، والأرملة والضعيف، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام، وشحت الأيدي به منذ أعوام، وسُلِّم إلى عبدة الأصنام، وقوبلت ضرائره بالأعذار، والمواعيد المستغرقة للأعمار وإن عَرَضَتْ شواغل وفتن، وشواغب وإحن فكانت بحيث لا يقطع السبب بجملته، ولا يذهب المعروف بكليته :

ولابد من شَكْوَى إلى ذي مروءةٍ
يُواسيك أو يُسْليكَ أو يَتَوَجَّعُ

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدَّسُ والدُكم جَبَلَ الفتح وهو مُنازِلُ أخاه بسلجماسة، ولا أمدَّه ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش.(١٠)

فالنص السابق يشتمل على عدة أمور أهمها وصف ما آلت إليه أحوال الأندلس من ضعف وانهيار ومازال الكفر يعمل على مكايدته وهدم أركانه – وفضلاً عن هذا فإنَّ المسلمين قد شغلتهم دنياهم عن دينهم كما شغلهم طول الأمل عن نافع العمل. ولهذه الأسباب مجتمعة يلجأ ابن الخطيب في شرح الحال واستنهاض همة المرينيين إذ لم يبق للمسلمين في الأندلس من منقذ سواهم "فلما رأينا أن الدولة المرينية التي هي على مرِّ الأيام شجا العِدا ومتوعد من يكِيد الهدى، وفئة الإسلام التي إليها يتحيز".

ثم يذكر السلطان العناني المُرسل إليه بأيام أبيه الذي لم يشغله شيء داخلي عن نصرة الإسلام "ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المُقدَّسُ والدكم جبل الفتح وهو مُنازل أخاه بسحلماسة، ولا أمَدَّه ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش" من أجل هذا فإننا نرى ابن الخطيب يعول الأمر عليه بعد الله، فيقول "وعلى الحالين فعليكم بعد الله المُعَوَّل وفيكم المؤمَّل".

ومن رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني لنصرة الأندلس يقول لسان الدين على لسان سلطانه "ونحن مهما شد المخنّق بكم نستنصر، أو تراخي ففي ودكم نستبصر".(١١)

(١٠) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٦ وما بعدها.

(١١) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤١٣.

وفي موضع آخر من الرسالة نفسها يقول "فنحن نسألكم بالله الذي تساءلونَ به والأرحام، ونأنف لكم من هذا الإحجام، ونتطارح عليكم أن تتركوا حظكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا وبين العدو الذي يتكالَبُ علينا بإدباركم".(١٢)

وفي رسالة أخرى يوضح ابن الخطيب ضيق حال الأندلس فيقول "وإن تشوفتم إلى أحوال هذا القطر ومَنْ به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدوّ تيارًا، ونكابر بحرًا زخارًا، ونتوقع – إلا إن وقى الله تعالى – خطوبًا كبارًا، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصارًا، ونلجأ إليه اضطرارًا، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعدادًا به واستظهارًا، ونستثير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارًا، وينشئ ريح رَوْحِ الله طيبة مِعطارًا، فإنّ القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفَتَهُ لا تستطيع، رمي هذه الأمة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يُسد طريقها ولا يحصى فريقها، التفّت على أخي صاحب قَشْتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكل يدًا واحدة على المسلمين، ومناصبة هذا الدين، واستئصال شأفه المؤمنين وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عَهْد ولا عرفها نجد ولا وَهْد، وقد اقتحموا الحدود القريبة والله تعالى وليُّ هذه الأمة الغريبة، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقَوّى الضعيف ويدرأ الخطب المخيف، ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.(١٣)

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).

فابن الخطيب في النص السابق يوضح ضيق حال الأندلس في تلك الأيام مصورًا العدو بأنه تيار قوي وبحر زاخر، وكذا يوضح تجمع العدو الصليبي والتفافه حول القومس الصليبي صاحب قشتالة فهو يأمر أصحابه ليكونوا يدًا واحدة ضد المسلمين، وابن الخطيب يستنهض همم المسلمين ويدعوهم باسم الدين أن يتوحدوا كما توحد الصليبيون لنصرة الأندلس.

ويختم قوله بتلك الآية الشريفة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنص الرسالة فهو يهيب بالمسلمين ألاَّ يخشوا تجمع الصليبيين كما يطلب منهم أن يزدادوا إيمانًا ويقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

أما المضمون الثاني الذي تشتمل عليه تلك الرسائل فهو التهاني بالمناسبات والرد على الخطابات الواردة من السلطان أبي عنان.

ومن ذلك قول لسان الدين، "صدر عنِّي جواب للسلطان الكبير الشهير أبي عنان عن كتابه الذي وجهه إلى سلطان الأندلس أمير المسلمين أبي الحجاج بن نصر، رحمة الله عليهما يُعَرِّفه فيه بما أتاح الله له من الظهور على بني زيَّان، واستيلائه على ملكهم بمدينة تلمسان، وذلك في وسط شهر ربيع الأول المبارك من عام اثنين وخمسين وسبعمائة. (١٤)

ومن هذه الرسالة في التهنئة قوله "ونَفْرَغ من مراجعة ذلك المجد الوضَّاح حتى اتصل بنا الصُّنع، الذي عَمَر ما قبله، وشرح مُجْمَل السعد، وأوضح سُبُله، من أنكم ملكتم مدينة تلمسان، فَاسْتَأْثَرْتم بالسَّعد الْهَنِي المُعَجَّلْ، ودخلتموها في اليوم الأغَرِ المُحجَّل". (١٥)

(١٤) ريحانة الكتاب، الجزء الأول، ص٢١٦.

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

ومن الرسائل التي وردت في التهنئة بالقضاء على الثورات أو الثوار قول لسان الدين وصدر عني لما فرَّ الأمير أبو ثابت الزعيم بالفَلِّ من بني زيَّان أثر الهزيمة التي جرت عليهم، ولحق بأرض صاحب بجاية فقبض عليهم، ووجَّه بهم إلى السلطان الكبير الشهير أبي عنان رحمه الله، فأوقع بهم، تجاوز الله عنهم وخاطب سلطان الأندلس أبا الحجاج بن نصر رحمه الله مراجعته من إملائي".(١٦)

ومن ذلك أيضًا في رسالة أخرى قوله "وصدر عني في هناءِ السُّلطان الكبير أبي عنان رحمه الله عندما أتيح له النصر على فَلِّ بني زيَّان بمدينة تِلمْسان، وذلك في عام اثنين وخمسين وسبعمائة" ومنها قوله في التهنئة "والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يستعذب منه مَبْسِم الفضل ريقًا، والصنع الذي يدرءُ روض العناية الإلهية أنيقًا، فإنَّا كتبناه إليكم، كتب الله لكم نصرًا يطبق مفاصل الآمال، تطبيقًا، وسعدًا يُفوِّق سِهَامَه تفويقًا ...".

ومنها أيضًا قوله "فإنَّا وَرَدَ كتابكم، الذي حَفَر التعريف بالظفر وأكَّده، وعَضَّدَ إخاءَه وأيَّده ... الخ" ثم يذكر بعد ذلك رد الخطاب ذاكرًا فيه أن الله أعز ملكهم "بتورُّط عدوكم في هفوة الرَّدى ومَهْوَاةِ الهلكة، والفتح الذي قام بحساب الفتوح مقام الفَدْلكة وأرمق قلوبكم، كما تناولت عَزَماتُكم طرده وعكسه، وقارعت خصماءَ نفوسكم نفسه، وجرَّت عليه جيوشكم الجرَّارة ذُيُول الهزائم وأذكت عليه سعودُكم عيون الزمن النائم، فرأوا عقبان الخيل في أعقابهم، وعيون النجوم تأخذ المراقب في ارتقابهم، وراموا التنكر فَعُرِفوا".(١٧)

---

(١٦) المصدر نفسه، ص٢٢٥.

(١٧) المصدر نفسه، ص٢٤٧.

فلسان الدين هنا يذكر ورود الخطاب الواصل من أبي عنان ثم يبعث له بخطاب مماثل على لسان سلطانه يهنئه فيه على النصر الذي أحرزه على أعدائه الثائرين عليه.

ومن الرسائل الواردة في التهاني رسالة بعث بها سلطان الأندلس مهنئًا السلطان أبا سالم بحكم المغرب، قال على لسان ابن الخطيب ... "هَنَأكُم الله ما خوّلكم، وبلّغكُمْ من فضله أملكم".(١٨)

ومن أمثلة الردود على كتابات أبي عنان قول ابن الخطيب، "ومن ذلك ما كتبت به عن السلطان أبي الحجاج رحمة الله عليه جوابًا عن هدية بعثها السلطان أبو عنان مشتملة على خيل وعدة من المهندات والذهب العين".(١٩)

ومنها قوله "يالها من هدية اتخذ الناس يومها عيدًا، وموسمًا سعيدًا، وعزمًا رآه العدو قريبًا، وكان يحسبه بعيدًا، نتيجة الهمة التي تقف الهمم دون مداها وتستقري الغيوث مساقط نداها".(٢٠)

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٩١.
(١٩) المصدر نفسه، ص٤٠٣.
(٢٠) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

الخاتمـة :

ويختتم لسان الدين ابن الخطيب رسائله الديوانية بالدعاء للمخاطب ويتحرى في أدعيته الألفاظ التي تتوافق مع مقتضى الحال، ثم يذيل بالقول المأثور "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

ومن ذلك قوله في ختام رسالة "والله سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".(٢١)

وفي ختام رسالة يقول "نسل الله أن يمتعكم وإيانا ببقائكم مادَّة سعودها، وحياة وجودها، ويبقى بمناصحة الله فيها ذكركم ويعلي بجهاد عدوه قدركم، وهو سبحانه يَصِل بركم ويوزع شكركم، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته".(٢٢)

ولقد تكررت تلك الألفاظ الدعائية في ختام رسائل ابن الخطيب السلطانية – ومنه أيضًا في رسالة أخرى "وهو سبحانه يصل مسعدكم ويحرس مجدكم، ويضاعف نعمه عندكم ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".(٢٣)

---

(٢١) الإحاطة، المجلد الرابع، ص٤١٥.

(٢٢) الريحانة، المجلد الأول، ص٤١٣.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٤٠٣.

المبحث الثاني
اللغــة والأسلــوب

إنَّ من يقرأ رسائل ابن الخطيب السلطانية يجد نفسه أمام عالم لغوي وفقيه ديني امتلك ناصية اللغة ووقف على ذخائرها وأسرارها، ووضح ذلك في رسـائله وضوحًا جليًا يجل عن الحصر، فقد تنوعت ألفاظه وأساليبه حسـب موضـوعاته، فضلاً عن استخدامه ألفاظًا ذات صدى في كل رسائله ومترادفات متنوعة وإطناب ملحوظ، واستخدام جملٍ اعتراضية وتنوع أساليب، وعلى هذا يمكننا أن نضع أيدينا على بعض الظواهر اللغوية والأسلوبية البارزة والمتمثلة في :

[١] ثراء محصوله اللغوي :

بعد القراءة المتأنية لتلك الرسائل موضوع البحث أظن أنه لا يوجد من بين كتاب الأندلس من يضاهي لسان الدين ابن الخطيب في ثراء محصوله اللغوي الذي وَسَّعَ قاموسه، وقد مكنه هذا المحصول من اختيار الألفاظ المناسبة للمعنى ووضعها في مواضعها الصحيحة، فهو حين يحث على الجهاد ونصرة الأندلس يكثـر مـن الألفاظ الدالة على ذلك فنجد مثلاً تكرار كلمة الجهاد بشكل ملحوظ، وكـذا ألفـاظ النصر، الخيل، الأعنة، الأسطول، الرباط، الحرب، السلم، السـيوف، المجاهـدين، الحسام، الفتح ... الخ.

ومن ذلك مثلاً قوله : "فإن الجهاد باب من أبواب الجنة"..

وكذا يقول في الحث على الجهاد "الدين دينكم والبلاد بلادكم ومحل رباطكم وجهادكم".(٢٤)

---

(٢٤) نفح الطيب، ص٢١١.

ومنه قوله أيضًا "وأن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعنة، والثنايا مدتها بروق الأسنة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون".(٢٥)

[٢] استخدام ألفاظ وأوصاف وعبارات ذات صدى :

لقد حرص ابن الخطيب على ترديد ألفاظ وعبارات في هذا النوع من رسائله بنفس دلالتها. فهو يذكر في كل رسائله كلمة "المقامُ" ثم يصف وصفًا يليق به ... وكذا قول السلطان كذا ابن السلطان كذا أبقاه الله تعالى. وكذا قوله : "من حمراء غرناطة حرسها الله"، ومنها أيضًا : "أما بعد حمد الله مجيب الدعاء".

فتلك الألفاظ والعبارات تتكرر كما ذكرنا سابقًا في كل الرسائل موضوع بحثنا بنفس دلالاتها.

[٣] الألفاظ الدينية :

لا شك أنَّ دراسة ابن الخطيب علوم الدين على كبار علماء عصره فضلاً عن حفظه القرآن الكريم وتفسيره قد هيأ له ثقافة دينية واسعة جعلته فقيهًا في الدين، ولقد ظهر أثر هذا الموروث في ألفاظ وعبارات ابن الخطيب بحيثُ لا نجد سطرًا في رسالة يخلو من ألفاظ وعبارات دينية، فلفظ الجلالة الله بصفاته والتضرع إلى الذات الإلهية بالدعاء إلى الله، لا يمكن حصره في الرسائل، فضلاً عن استخدامه الكلمات الآتية : الإسلام، الدين الحنيف ... الخ.

وكذا ذكره صفات المسلمين المدافعين عن الدين والحاملين له، والأمثلة على ما سبق كثيرة منها قوله "والحمد لله كثيرًا"، "وصل الله سعدكم، وحرس مجدكم" "ووالى النعم عندنا وعندكم"، وكذا "والله الواقي".

---

(٢٥) المصدر نفسه، ص٤١٤.

"مَن نَوَّرَ اللهُ تعالى قلبه بنور الإيمان، وتململ بمناصحة الله تعالى والإسلام تململ السليم" ... الخ كل هذه الألفاظ والعبارات وغيرها في صفحة واحدة، وهكذا في كل الرسائل، وفضلاً عن هذا فهو حين يشكو حال الأندلس أو يصف ضعفها ليستصرح أو يستنجد فإنه يذكر العابد، والراكع، والساجد، والمساجد، والمنابر، والعالم ... الخ. ومن ذلك قوله في وصف الأندلس وما حل بها من خراب على أيدي أعداء الدين "أن هذا القطر الذي تعددت فيه المحارب والمنابر، والراكع، والساجد، والذاكر، والعابد، والعالم، والأرملة، والضعيف، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام وشحت الأيدي به منذ أعوام وسُلّم إلى عباد الأصنام ...". (٢٦)

[٤] كثرة استخدام المشتقات :

كَلِف ابن الخطيب باستخدام المشتقات على اختلاف أنواعها كلفًا شديدًا. ومن أمثلتها "سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله مجيب دعوة السائل، ومُتَقَبِّل الوسائل، ومتيح النعم الجلائل، مُرْبِح مَنْ عامله في هذا الوجود الزائف الزائل، والأيام القلائل، بالمتاع الدائم الطائل، والنعيم غير الحائل، ومُقيم أوَدِ الإسلام المائل، بأولي المكارم من أوليائه والفضائل، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المُنقذ من الغوائل، المنجي من الرَّوْعِ الهائل، الصادع بدعوة الحق الصائل، بين العشائر والفضائل ... الخ". (٢٧)

وهذه الفقرة على قصرها – تنوء بما فيها من مشتقات – وخاصة اسم الفاعل، فمن أمثلة اسم الفاعل "مُجِيبْ السائل، الزائف، الزائل، الطائل، الحائل، المائل، المنجي، الهائل، الصادع، الصائل، العائل، ... الخ". ومن اسم المفعول "مُتَقَبّل"، ومن صيغ المبالغة "كريم".

---

(٢٦) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٧.

(٢٧) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

ونقع على مثل هذه المشتقات في الرسائل الأخرى بشكل ملحوظ أيضًا، ومن ذلك قوله في رسالة من رسائله "أما بعدْ حمدِ الله على عميم آلائه، وجزيل نَعْمائه، مُيَسِّر الصعب بعد إبائه، والكفيل بتقريب الفرج وإدْنائِه، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه الهادي إلى سبيل الرشد وسَوائه، مُطْلِع نور الحق يجلو ظُلَم الشك بضيائه، والرضي عن آله وأصحابه وأنصاره، وأحزابه وخلفائه، السائرين في الدنيا والآخرة تحت لوائه، الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلائه، والدعاء لمقامكم بتيسير أمله".(٢٨)

فاسم الفاعل مثل "خاتم، الهادي، السائرين، الباذلين ... الخ"، ومن أمثلة صيغ المبالغة "كفيل"، ومن المصدر "تقريب، إظهار، تيسير، ...".

والإكثار من استخدام هذه المشتقات وخاصة اسم الفاعل يؤكد على ما ذكرناه من امتلاك ابن الخطيب ناصية اللغة وثراء محصوله منها، كما تتأكد مهارته وقدرته على التشكيل اللغوي وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ ابن الخطيب يؤكد أن لغته ليست قوالب جامدة ولكنها أداة طيعة تحمل معانيه وتنقل انفعاله.

[٥] الإطناب :

يقوم أسلوب ابن الخطيب في جملته على الإطناب، والتوسع في رصف الألفاظ وبسط المعاني والميل إلى الترادف والتكرار واستقصاء المعنى وترامي أطراف الجمل، وهذه السمة من السمات الأسلوبية التي التزمها أدباء الأندلس الكبار أمثال ابن أبي الخصال رئيس كتاب الأندلس.

(٢٨) المصدر السابق، ص٤٣٧.

كما أطلق عليه د. فوزي عيسى ولقد أشار إلى هذه الظاهرة في رسائل ابن الخصال. (٢٩)

وكذا التزم هذه الظاهرة ابن زيدون وابن شهيد، وابن برد وغيرهم، ولكنها عند ابن الخطيب تبدو واضحة وضوحًا جليًا ينم عن ثراء لغته وتمكنه منها ومن أمثلة ذلك قوله "من حمراء غَرْناطة حرسها تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع لمقامكم حرس تعالى سلطانه ومَهَّد أوطانه، إلا الخير الذي نسأل بعده تحسين العُقْبى، وتوالي عادة الرحمى، والحمد لله على التي هي أزكى، وسدل جناح الستر الأخفى، وصلة اللطائف التي هي أكفل وأكفى، وأبرُّ وأوفى، ومقامكم عندنا التي بها نصولُ ونُرْهِب، والعمدة التي نُطِيل في ذكرها ونُسْهِب، وقد أوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا، أو فتح الله تعالى به علينا، ونحن مهما شد المخنق بكم نستنصر، أو تراخي ففي ودكم نستبصر، أو فتح الله تعالى فأبوابكم نهني ونبشر، وقررنا عندكم أن العدو في هذه الأيام توقف عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سرية، ولا بطشت له يد جَرِيَه ولا افترعت من تلقائه ثَنِيَّة، ولا ندري ألمكيدة نُدبَّر، أم آراء تُنقض بحول الله وتُتَبَّر، أو لشاغل في الباطن لا يظهر، وبعد ذلك وردت على بابنا مِنْ بعض كباركم، وزعماء أقطارهم مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل النصح، لأياد سلفت مِنَّا لهم قررها ووسائل ذكرها، فلم يَخْفَ عنا أنه أمر دُبِّر بلَيْل، وخيبة تحت ذيل، فظهر لنا أن نَسْبُرَ الغَوْر، ونستفسر الأمر، فوجَّهْنَا إليه – على عادتنا مع سلفه – لنعتبر ما لديه، وننظر إلى بواطن أمره، ونبحث عن زَيْد قومه وعَمْره، فتأتّى ذلك وجرَّ مفاوضة في الصلح أعدنا لأجلها الرسالة، واستشعرنا البَسالة، ووازنّا الأحوال واختبرنا، واعتززنا في الشروط ما قَدَرْنا ونحن

(٢٩) د. فوزي عيسى، أبو عبد الله بن أبي الخصال، رئيس كتاب الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص١٨٧.

نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الأقوات المهيأة للانتساف، وتسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف ونفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتى يُظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أدرنا، وشموخ الأنف فيما أصدرنا، إلا ما أشعنا من عزمكم على نصرة الإسلام، وارتقاب خفوق الأعلام والخفوف إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام".(٣٠)

جاءت الفقرات السابقة من رسالة في استنهاض السلطان المريني بدأها بذكر مكان الإرسال من حمراء غرناطة ثم دعا بحراسة الله لها ثم حمد الله وأثنى عليه، وأخذ يصف حال العدو الذي يتربص بالأندلس وكذا يرصد ترقب الأندلسيين لما يحيكه العدو من حيل ومهادنات حتى يتمكن من السيطرة على المدينة، ويختم بالاستغاثة والاستعانة حتى يستنهض الهمم لنصرة دين الله.

ولقد جاءت الجمل متعاقبة متوافقة الفواصل مما أضفى عليها لوناً من الجمال الذي يتمثل في هذا التلوين الصوتي والإيقاعي المتولد من التكرار والترادف والتعاقب والتوافق في فواصل الجمل.

وتكاد تطرد هذه الظاهرة في رسائل ابن الخطيب السلطانية بهذا الشكل الذي لون أسلوبه بالجمال من ناحيتي المعنى والإيقاع.

[٦] تنوع أساليب ابن الخطيب :

تنوع الأساليب والمزاوجة بين الخبر والإنشاء من أهم المظاهر اللغوية التي يقوم عليها أسلوب ابن الخطيب، ووجود هذه الظاهرة في رسائله السلطانية يؤكد

(٣٠) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤١٣ وما بعدها.

وعيه بقيمة استخدام كلٍ من الأسلوبين في خدمة المعنى، وهو في استخدامه الأسلوب الخبري يؤكد فكرته باستخدام الأدوات اللازمة لذلك ومنها "إنَّ، قد، استخدام الفعل الماضي، وغير ذلك من المؤكدات ... .

ومن ذلك قوله "فليست إعانة هذه البلاد الجهادية ببدع من مكارم جنابكم الرفيع والإشارة فيما أسدى على الأيام من حسن الصنيع، فقد علم الشاهد والغائب ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب".(٣١)

وفي الرسالة نفسها يؤكد كثيرًا بالفعل الماضي مثل "دفع الله مضرَّته عن الإسلام وأهله ويسره بمعهود فضله".(٣٢)

وفي رسالة أخرى يكثر من استخدام الأسلوب الخبري، مؤكدًا بأكثر من مؤكد فيقول "فإننا ورد علينا كتابكم الكريم الفصول ... الخ".

ومن ذلك أيضًا قوله "أما بَعْدَ حَمْدِ الله الذي من توكل عليه فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن اعتمد عليه فقد ظفر بما هو خيرٌ وأبقى ...".

وفي بعض الأحيان نجد ابن الخطيب يقيم معظم فقره على الأسلوب الإنشائي على اختلاف أنواعه. ومن ذلك قوله "وصل الله سعدكم وحرس مجدكم ..." وزين بالخَط الخطاب ... الخ، "أنبت دولتكم النبات الحسن وأجزل لكم المنن وأخفى عليكم من وقايته الجُنن، زادكم الله من فضله، وحملكم على ما فيه السَّعد المجدَّد والفخر المُخلَّد بعيد الأمر كله ...". (٣٣)

---

(٣١) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المجلد الأول، ص٤١٧.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٤١٨.

(٣٣) المصدر السابق نفسه، ص٤٢٣.

وقد يزاوج ابن الخطيب بين الأسلوبين، ومن ذلك قوله من رسالة على لسان الغني إلى أبي عنان "أما بعد حمد الله الذي لا رادَّ لأمره ولا معارض لفعله، مصرف الأمر بحكمته وقدرته وعدله، الملك الحق الذي بيده ملاك الأمر كله، مقدر الأعمار والآجال فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يَبْرَحُ عن محله ... فإنَّا كتبناه إليكم – كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها، وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فَوقها الدهر ورماها، وعنايةً لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها...".(٣٤) وهكذا كان استخدام الأساليب في رسائل ابن الخطيب – موضوع البحث –.

وهذا الاستخدام ينم عن نفس الكاتب الطويل في بسط معانيه وفيض قريحته وتفجرها كينابيع لا تنضب.

[٧] ظلال الفعل المضارع :

ورد الفعل المضارع عند ابن الخطيب في مواضع كثيرة من رسائله التي نحن بصددها ومن ذلك قوله "المقامُ الذي يُغني عن كل مفقود بوجوده، ويهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده، ونستضئ عند إظلام الخطوب بنور سعوده، ونرث من الاعتماد عليه ذُخْرًا يرثه الولد عن آبائه وجدوده ...". (٣٥)

وفي الرسالة نفسها يقول "والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صَفْوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رُسُله الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بِحَبْله، ونمدُّ يَد الافتقار إلى فضله، ونجاهد في سبيله، ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله ...".

---

(٣٤) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٢٥.

(٣٥) المصدر السابق، ص٤٢٤.

ومنها أيضًا "فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي تقتضيها كرام الطباع وطباع الكرم وتدعو إليها ذمم الرعي ورعي الذمم نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه، وإمتاع المسلمين ببقائه، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهادة التي ألبسه حللها ...". (٣٦)

فقد ضمت هذه السطور القليلة ما يقرب من عشرة أفعال مضارعة توحي باستنهاض الهمة والعزيمة فضلاً عن تأثر ابن الخطيب بالألفاظ الدينية المختلفة، وهو يستدعي كل لفظ لازم لمكانه سواء في ذكر المقام أم الحمد أم الصلاة والسلام على نبي الهدى محمد صلى الله عليه وسلم أم في وصف حال الأندلس أو تبليغ صاحب المقام بشيء ما.

(٣٦) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٢٥.

المبحث الثالث

الاقتبـاس والتضميـن

أُولِعَ لسان الدين ابن الخطيب بتضمين رسائله السلطانية الآيـات القرآنيـة والأحاديث النبوية والأشعار وغير ذلك، مما يسمى عند ابن عبـد الغفـور بـالنثر المرصع(٣٧)، وهي ظاهرة التزمها كتاب المشرق والمغرب بتفاوت علـى حسـب مواهبهم وثقافتهم وقدراتهم اللغوية.

[١] الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية :

أكثر ابن الخطيب في رسائله السلطانية من الاقتباس من القـرآن الكـريم والحديث الشريف واتسع في ذلك اتساعًا كبيرًا حتى تعد هذه الظاهرة مـن أكثـر الظواهر شيوعًا في رسائله موضع البحث، ولقد تنوعت ضروب هذا النـوع مـن التضمين، فكثيرًا ما كان ابن الخطيب يضمن نصه الآيات بلفظها ومعناها.

وفي أحيان أخرى كان يستعين بالمعنى وبعض الألفاظ، وهو في الحـالتين كان يطوع اقتباساته للسياق.

ومن ذلك قوله – "فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة، والمسلمون يَدٌ على مَنْ سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، والتعاون على البر والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذكور، وحق الجار مشهور، ومـا كان جبريل يوحي به في الصحيح مكتوب، وكما راع المسلمين اجتماع كلمة الكفر، فنرجو أن يروِّع الكفر من العز بالله وشد الحيازيم في سبيل الله ونفير النفرة لـدين

(٣٧) إحكام صنعة الكلام، ص١٣٤، والمرصع يختلف عن الترصيع الذي يعده بعض البلاغيون من أنواع السجع. تحرير التحبير، ص٣٠٢.

الله، والشعور في حماية الثغور وعمرانها، وإزاحة عللها، وجلب الأقوات إليها، وإنشاء الأساطيل، وجبر ما تلف من عدة البحر، أمور تدل على ما وراءها، وتخبر بمشيئة الله تعالى عما بعدها ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. (٣٨)

ومن خطب علي رضي الله تعالى عنه : "أما بعد، فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رهبةً ألبسه الله تعالى سيما الخسف ووَسَمه بالصغار، وما بعد الدنيا إلا الآخرة، وما بعد الآخرة إلا إحدى داري البقاء، أفي اله شك ؟ ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (٣٩)

فنص الرسالة يتضمن آيات قرآنية وأحاديث نبوية بلفظها ومعناها كما يتضمن معاني آيات وبعض ألفاظها وكذلك معاني أحاديث نبوية وبعض ألفاظها، فضلاً عن جزء من خطبة للإمام علي رضي الله عنه في الحث على الجهاد.

وابن الخطيب يستدعي الآيات والأحاديث بهذا الشكل لاستنهاض الهمم للجهاد والدفاع عن الأندلس من مُنْطلق ديني، وكذا أراد أن يجمع المسلمين على قلب واحد. وذلك في استدعائه لحديث النبي صلى الله عليه وسلم : "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا"، وكذا حثه على مناصرة المسلم لجاره المسلم وذلك في إشارته إلى وصية جبريل عليه السلام في الصحيح على حق الجار.

ولقد طوع ابن الخطيب هذا الاقتباس المضمن في الرسالة لسياق النص العام لغرض الرسالة.

---

(٣٨) سورة البقرة، الآية (١٩٧).

(٣٩) سورة الحشر، الآية (٩).

ومن الرسالة نفسها قوله : ومن المنقول "ارحموا السائل ولو جاء على فرس"، والإسراف في الخير أرجح في هذا المحل من عكسه، وكان بعض الأجواد يقول وقد أقتر : اللهم هَبْ لي الكثير، فإن حالي لا تقوم على القليل".(٤٠)

فهو هنا ضمن كلامه حديث رسول الله الذي يحث على الكرم، كما ضمنه الكلام المأثور الذي أشار إليه. والملاحظ أيضًا أن الكلام المضمن ينسجم مع السياق العام. ومن رسالة أخرى يقول مضمنًا كلامه معانيَ قرآنية "فنحن نسألكم بالله الذي تساءلون به والأرحام".(٤١)

ومن رسالة أخرى توضح ضيق حال الأندلس وتستنهض همم السلطان المريني يقول : "وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقوي الضعيف، ويدرأ الخطب المخيف، ورَجَوْنا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(٤٢)، وهو سبحانه المرجو في حسن العقبى والمآل ونصر فئة الهدى على فئة الضلال، وما قلَّ من كان الحقُّ كَنْزَهُ، ولا ذلَّ من استمد من الله عَزَّه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾(٤٣)، فكما هو واضح أنه ضمن كلامه آيات القرآن الكريم(٤٤) السابقة لتأكيد الغرض الذي يلح عليه في معظم رسائله.

---

(٤٠) نفح الطيب، الجزء الرابع، ص٤١١.

(٤١) المصدر نفسه، ص٤١٥.

(٤٢) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).

(٤٣) سورة التوبة، الآية (٥٢).

(٤٤) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٤٤ وما بعدها.

تضمين الشعر :

فعلى الرغم من أن ابن الخطيب أفرط إفراطًا واسعًا في تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فإنه لم يغفل طريقة تضمين الشعر على طريقتين الأولى تضمين الشعر بلفظه ومعناه، والثانية تضمين المعنى.

ومن ذلك قوله في رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين "لقد شحت الأيدي منذ أعوام وسُلِّم إلى عبدة الأصنام وقوبلت ضرائره بالأعذار، والمواعيد المستغرقة للأعمار، وإن عَرَضت شَوَاغب وإحن، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ولا يذهب المعروف بكليته : (٤٥)

ولابد من شَكْوَى إلى ذي مروءَةٍ

يُواسيك أو يسليك أو يَتَوَجَعُ

ومن ذلك أيضًا قوله في الرسالة نفسها "فتمضي الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقًا ولا الأحوال إلا شدَّة، ولا الثغر إلا ضَعة ولا نعلم أن نظرًا وقع لـه ولا فكر أعمل فيه إلا ما كان إلا من تسخير رعيته الضعيفة، وبُلالة مجباه السخيفة، في بناء قصر بمنت ميور من جباله :

شَاده مَرْمَرًا وجَلّله كلـ

سًا فللطير في ذراهُ وُكورُ

(٤٥) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٧.

جلب إليه الزليج، واختلفت فيه الأوضاع في رأس نيق، لأمل نَزْوة، وسوء فكرة".(٤٦)

وابن الخطيب في وصفه حال الأندلس واستنهاض همم سلاطين بني مرين يتوافق مع قصيدة ابن الآبار : (٤٧)

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا

(٤٦) المصدر نفسه، ص٤٠٨.

(٤٧) ابن الآبار، الديوان، ص٣٩٧.

المبحث الرابع
بناء الصورة الفنية في الرسائل السلطانية لابن الخطيب

بعيدًا عن كثير من تعريفات الصورة فإنني أقف قليلاً عند أهميتها من وجهة نظر النقاد المحدثين حتى نستطيع الحكم على أنماط الصورة وكيفية بنائها في الرسائل موضوع البحث.

ومما أذكره قول د. عزل الدين إسماعيل الذي ينظر إلى الصورة بمنظار نفسي وإن كانت منتزعة من الواقع فيراها "تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع".(٤٨)

وكذا ربط كولردج بين الصورة والعاطفة حينما قال "إن عبقرية الصورة في شعر شكسبير تخضع في صياغتها إلى سيطرة العاطف".(٤٩)

ويشير د. جابر عصفور إلى أهمية الصورة فيقول : "وتتمثل أهمية الصورة في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعًا من الانتباه للمعنى الذي تعرضه وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به، إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا أنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه".(٥٠)

والشاعر أو الكاتب يتفوق بإجادته في بناء الصورة وتوظيفها، ولقد اعتمد لسان الدين بن الخطيب على الصور في كثيرٍ من عرض أفكاره، فعلى الرغم من الإسهاب الذي اتسم به أسلوب ابن الخطيب فإنه عرض في رسائله لوحات تصويرية تشتمل على مجموعة صور جزئية تبرز فكرته الأساسية وتؤكدها

(٤٨) الشعر العربي المعاصر، ص١٠٩.
(٤٩) النقد الأدبي الحديث، ص٤١١.
(٥٠) الصورة الفنية، ص٣٢٧.

وخاصة الرسائل التي وصف بها حال الأندلس وما آلت إليه، وكذا الصور التي تحث على الجهاد واستنهاض الهمم للدفاع عن المدنية.

ومن اللوحات التي تؤكد ذلك تلك التي رسمها في بداية رسائله والمتمثلة في ذكر المقام يقول في مقدمة رسالة له إلى أحد سلاطين بني مرين "المقامُ الذي يُصْرِخ ويُنْجِد، ويُتْهِم في الفضل ويُنجد، ويسْعِف، ويُبْرِق في سبيل الله ويُرعِد".(٥١)

فهو يبدأ اللوحة باستعارة مكنية تقوم على التشخيص حيث جعل المقامُ شخصًا يُغيث الملهوف، وتتوالى الصور التشخيصية وتمتد فيجعل المقام ينجد ويتهم ويدني ويُبعِد ويعين ويسعف في إعانته وإغاثته، ويبرق في سبيل الله ويُرعِد. فهذه الاستعارات التي تلت الاستعارة الأولى هي امتداد بالصورة أو هي ترشيح لاستعارات ناشئة عن الاستعارة الأولى أو هي صورة عنقودية كما هو مصطلح المحدثين.

ومن اللوحات التي رسمها لوصف المقام أيضًا قوله "المقام الذي شهد الليلُ والنهار بأصالة سعادته، وجرى الفلك الدوَّار بحكم إرادته، وتعود الظفَرَ بمن يناوئه".(٥٢)

وقد اعتمد ابن الخطيب في رسم الصورة السابقة على الصور المكنية القائمة على التشخيص فتشابهت مع ما قبلها وكأن صور المقام عنده تمثل مجموعة صور عنقودية ليظهر من خلالها قيمة وعظمة المقام المريني وقدرته على إنقاذ الحال وإعانة أهل الأندلس وإغاثتهم.

---

(٥١) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٤ وما بعدها.

(٥٢) المصدر السابق، ص٤٢٠.

ولقد عمد لسان الدين إلى رسم صور منفردة لا تقوم على الامتداد يبين فيها حال الأندلس وتربص العدو به، ومن ذلك قوله "إنما هو اليوم شبح ماثل، وطلل بائد ... وهو بصدد أن يتخذه الصليب دارًا، وأن يقرَّ به عينًا، والعُدوةُ فضلاً عن الأندلس، قد أوسعها شرًا، وأرهق ما يُجاورهُ عُسْرًا".(٥٣)

فالصور السابقة كما نرى جزئية تقوم على التشبيه مثل "شبح ماثل، طلل بائد"، والكناية في مثل قوله "يقربها عينًا، أوسعها شرًا" ... الخ، لتصوير حال الأندلس وتربص العدو به.

وعلى الرغم من أن تلك الصور تتضافر في إبراز حال الأندلس وتربص العدو به فإنها لا تشكل صورة كلية، ومن الصور الجزئية التي لا تشكل صورًا كلية قوله يصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضاربًا بهم المثل للسير على منهجهم "والرضا عن آله وأصحابه الذين كانوا غيوثًا كلما سُئِلوا سماحًا، وليونًا كلما شهدوا كفاحًا".(٥٤)

وقد يستدعي ابن الخطيب صورًا من الموروث الديني يحث بها المسلمين على الإخاء والتضافر والتعاون، ومن ذلك قوله "فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة، والمسلمون يَدٌ على مَنْ سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، والتعاون على البر والتقوى مشروع وفي الذكر الحكيم مذكور".(٥٥)

فهو هنا يستدعي الصور الواردة في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم لاستنهاض الهمم، ومن ذلك أيضًا استلهام صور من خطب علي رضي الله عنه للحث على الجهاد يقول "ومن خطب عليٍّ رضي الله تعالى عنه : أما بعد، فإنَّ

(٥٣) المصدر السابق، ص٤٠٨.

(٥٤) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المجلد الأول، ص٣٩٣.

(٥٥) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤١٠.

الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رهبةً ألبسه الله تعالى سِيما الخسفِ، ورَسَمه بالصغار".(٥٦)

ومن اللوحات التي رسمها لسان الدين لإبراز مضمون رسالته لوحة وصف الهدايا التي كان يبعثها السلطان أبو عنان مشتملة على خيل وعدة من المهندات والذهب يقول "فإننا وصلنا كتابكم الكريم الوفادة العظم الإفادة مصحبًا بالهدية التي الكمال، وصدقت في احتفائها واحتفالها الآمال واشتملت نكايتي العدو، وهما الخَيْل والمال، فكأنه كان لواءَ نصر خَفَق أمام كتيبة، ونسيمَ زهر عَبَق عن روضة عجيبة، ويالها من هدية اتخذ الناس يومها عيدًا، وموسمًا سعيدًا".(٥٧)

فهذه لوحة رغم أنها اشتملت على مجموعة صور جزئية فإنها لا تشكل صورة كلية، فقد اشتملت على صور استعارية مثل "صحبها الكمال، صدقت في احتفائها واحتفالها الآمال"، وكذا اشتملت على صور تعتمد على التشبيه مثل تشبيهه الكتاب الوارد بلواء النص "فكأنه لواء نصر خفق أمام كتيبة".

ولم يفت ابن الخطيب أن يشبه بعناصر الطبيعة في هذه اللوحة "فكأنه لواء نصر، ونسيم زهر عَبَق عن روضةٍ عجيبة"، أما الصور التي اعتمد فيها الكاتب هنا على الكناية فمنها قوله "ويالها من هدية اتخذ الناس يومها عيدًا، وموسمًا سعيدًا".

وتلك الصور التي وردت في اللوحة السابقة وإن لم تتضافر لتكون شكلاً فإنها كونت صورة واحدة في النفس والمضمون، فجميعها تعبر عن فرحة غامرة بالهدية، حيث اعتبرها الكاتب موسمًا للسعادة على المسلمين، فضلاً عن كونها تمثل نكاية بالأعداء وخذلانًا لهم، فهم لا يفرحون بتجمع المسلمين في البلدين.

---

(٥٦) المصدر نفسه، ص٤١٠.

(٥٧) الريحانة، المجلد الأول، ص٤٠٥.

ونجد له في الرسالة نفسها لوحة تمثل صورة كلية شكلاً ومضموناً لفرص من خيول الهدية المُرسلة. يقول في وصف الفرس "وأشقر عَسْجَدي اللِّباس، شُعلة من شعل الباس، كأن أُذُنه ورقه الآس، وغرَّتُه الحبابةُ الطافية في الكاس. وأحمر وردِيُّ الأديم، حايز في حلبة الحسن مزية التقديم، كأنما صنع من العَنْدَمْ، أو صبغ بالرحيق المغدَّم، يحسد الأسد الوردُ في لونه، ويدعى الريح أنها مادة كونه".(٥٨)

فهو يتعرض لوصف الحصان من نواحٍ عدة فهو أشقر عسجدي اللباس فضلاً عن لونه الأحمر الوردي كما أنه فائز بالسبق والتقديم في الحلبة. فهي لوحة كاملة تخاطب أكثر من حاسة لما تعطيه لهذا الفرس من لون وحركة مستدعيًا مظاهر الطبيعة المختلفة للتشبيه بها ومنها "كان أُذُنه من ورقه الآس. هذا فضلاً عن استخدامه فاصلة السين في أوصافه وتشبيهاته "عسجدي اللباس، شعلة من شعل الباس، كأن أذنه ورقه الآس، غرته الحبابة الطافية في الكاس ...".

وعلى هذا نستطيع القول إن لسان الدين اهتم بالصورة الفنية اهتمامًا واضحًا فبدت سمة أساسية من سمات فنه في رسائله موضوع بحثنا.

ولقد اتسمت صوره بالتكرار والتشخيص من جانب واعتمد على التشبيه والكناية من جانب آخر، كما جاءت ممتدة عنقودية في لوحات فنية تمثل صورة كلية أحيانًا، وفي أحيان أخرى جاءت عبارة عن لوحات تمتلئ بصور جزئية لا تشكل صورة كلية في الشكل وإن كانت تمثل صورة كلية من حيث الدلالة أو المعنى.

ولقد جاءت بعض صوره جزئية مفردة لا تمثل لوحات، ولقد كانت لديه القدرة على استدعاء صور تراثية وأخرى من البيئة الطبيعية الأندلسية.

---

(٥٨) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

المبحث الخامس
التكوين البديعي

[١] السجع :

التزم لسان الدين بن الخطيب بالسجع في بناء رسائله السلطانية مجاريًا في ذلك الذوق البديعي السائد في الكتابة النثرية بشكل عام، وقد عَبَّر ابن عبد الغفور الكلاعي عن هذا الأمر فقال "والذي عندي في هذا أن النثر والنظم أخوان، فكما لا يقدح في النظم تكلُّف الوزن والقافية، كذلك لا يقدح في النثر تكلُّف السجع"(٥٩)، وقال السكاكي "الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر".(٦٠)

ولقد تفنن ابن الخطيب في استخدامه السجع ضروبًا مختلفة منها تكراره السجع في مجموعة من الفواصل المتعاقبة كقوله "أمَّا بعد حمد الله مجيب دعوة السائل، ومتقبل الوسائل، ومُتيح النعم الجلائل، مُرْبِح مَنْ عامله في هذا الوجود الزائف الزائل، والأيام القلائل، بالمتاع الدائم الطائل، والنعيم غير الحائل، ومقيم أوَدِ الإسلام المائل، بأولي المكارم من أوليائه والفضائل".(٦١)

وقد يأتي بأربع فواصل متعاقبة كقوله "والدين دينكم، والبلادُ بلادكم، ومحل رباطكم وجهادكم، وسوقُ حسناتكم".(٦٢)

---

(٥٩) ابن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص٢٢٨.

(٦٠) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، ص٨١.

(٦١) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٥.

(٦٢) المصدر السابق، ص٤١١.

وقد يجعل السجع بين ثلاث فواصل ثم يأتي بثلاث فواصل أخر على قافية أخرى ويكرر ذلك مما يحدث تأثيرًا موسيقيًا جميلاً ينم عن ثراء المحصول اللغوي والتمكن من استخدام الأدوات.

ويتمثل ما سبق في مثل قوله من رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين "ونحن مهما شد المخنّق بكم نستنصر، أو فتح الله تعالى فأبوابكم نهني ونبشر، وقررنا عندكم أن العدو في هذه الأيام توقف عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سرية، ولا بطشت له يد جَرِيّه، ولا افترعت من تلقائه ثَنِيّة. (٦٣)

فهو هنا كرر القافية بين كل ثلاث فواصل وإن طالت بعض فِقره وقصرت الأخرى.

وقد يكرر ابن الخطيب السجع في مجموعة من الفواصل المتعاقبة ثم يعود فيوافق بين كل فاصلتين كقوله "ولا ندري ألمكيدة تُدبَّر، أم آراء تُنقض بحول الله وتُتَبَّر، أو كشاغلٍ في الباطن لا يظهر.

وبعد ذلك وردت على بنانا مِنْ بعض كبارهم، وزعماء أقطارهم، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل النصح". (٦٤)

وأفضل ما عنده في السجع أن تنفرد كل فاصلتين بقافية واحدة فيما اصطلح البلاغيون على تسميته بـ "الازدواج"(٦٥) كقوله "فلم يَخْفَ عنا أنه أمر دُبِّر بِلَيْل،

(٦٣) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤١٣.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٤١٣.

(٦٥) المثل السائر، الجزء الأول، ص٢٧١، الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، الجزء الثاني، ص٣٩٣.

وخَيبة تحت ذيل، فظهر لنا أن نَسْبُر الغَوْر، ونستفسر الأَمْرَ".(٦٦) ومن ذلك أيضًا قوله "قدس الله تعالى أرواحهم، وضاعف أنوارهم".(٦٧)

والواضح مما سبق أن أغلب الأسجاع من النوع الطويل أي التي تطول فقره لذلك قلما نجد أسجاعًا متساوية القرائن أو الفقر في الكلمات في مثل قوله "والداعي والباعث : أن صاحب قشتاله لما عاد إلى ملكه، ورجع إلى قطره، جرت بيننا وبينه المراسلة التي أسفرت بعدم رضاه عن كَدْحنا لنصره، ومظاهرتنا إياه على أمره، وإن كنا قد بلغنا جُهدًا، وأبعدنا وُسعًا".(٦٨)

فالواضح هنا أن السجع من النوع الذي طالت فقرته الأولى على الثانية وهو غير مستحسن عند البلاغيين الذين أكدوا على أن أحسن السجع ما تساوت فقره أو طالت فقرته الثانية أو طالت الثالثة وليس العكس "لأن السامع ينتظر إلى مقدار الأول، فإذا انقطع دونه أشبه العثار".(٦٩)

والذي عندنا في التعليق على هذا الأمر يتلخص فيما يلي : أن كاتبًا مثل ابن الخطيب عالم موسوعي في مجالات العلوم المختلفة، ولقد برع في الشعر والنثر بتمكن لغوي وبلاغي، وبالتالي لا تغيب عنه مثل هذه الأمور التي أدركها كثير من كُتاب الأندلس وعلى رأسهم ابن أبي الخصال. وسنذكر له نماذج بعد إبداء رأينا فيما سبق.

---

(٦٦) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤١٣.

(٦٧) المصدر نفسه، ص٣٤٩.

(٦٨) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٩.

(٦٩) جواهر البلاغة، المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، تحقيق محمد التوبجي، ص٤٣٤.

ويتمثل رأينا في أن ابن الخطيب شغله مضمون الحياة السياسية والاجتماعية في عصره والمتمثل في معاناة الناس وخوفهم وانقسام المجتمع بالإضافة إلى خريطة بلاد ممزقة عجز ملوكها عن الوصول إلى أدنى مراد. مما جعل ابن الخطيب يستهلك طاقة أديب بارع وكاتب مميز بارع جليل في عبارات الثناء والدعاء، وطلب النجدة، وهو لا يقل براعة عن الكتاب الذين كتبوا في عصور تسبق هذا العصر أمثال ابن أبي الخصال وابن عبدون وابن برد وابن زيدون وغيرهم، ممن تنوعت موضوعاتهم وظهرت سماتهم الفنية بشكل رائق عن تلك الرسائل موضوع بحثنا.

فابن أبي الخصال رئيس كتاب الأندلس يقول عنه في هذا الصدد د. فوزي عيسى "ومن أبرز الظواهر البديعية في نثره كلفه بمقابلة الأسجاع في الفواصل، فهو لا يكتفي بالإيقاع المتولد من تجانس أواخر الفقر، بل يعمد إلى إثراء القطعة النثرية بلون آخر من الإيقاع يشبه الإيقاع الداخلي في القصيدة".(٧٠)

ومن ذلك قوله "وأمَّا أنا ... وما أنا : فقرينة اجتثاث، ورهينة انتكاث، أصلٌ لا انشمر ولا استقلَ، وفرع لا أثمر ولا أظل، وخطبانٌ شوبها خطوب، وقضبان ذوبُها سلع بالمنية مقطوب".(٧١)

ومن ذلك عنده أيضًا من مقابلة الأسجاع وتجنيس الألفاظ قوله "وأنا فما أردتْ، بما أوردت من مثلٍ، في بدل ضربته، ولا خلوت بما جلوت، من تحاجٍ، في احتجاج قربته، إلا لاعتذار في النكول، ويعتبر الشكول بالشكول".(٧٢)

---

(٧٠) أبو عبد الله بن أبي الخصال، رئيس كتاب الأندلس، ص١٦٤.

(٧١) ترسل ابن أبي الخصال، ص٦٣، نقلاً عن كتاب أبو عبد الله بن أبي الخصال، د. فوزي عيسى، ص١٦٥ وما بعدها.

(٧٢) نفسه، ص١٦٦.

ونذكر مثالاً من رسالة لابن عبدون تسير على النمط الذي كان عليه ابن أبي الخصال، مما يؤكد ما لهذين الكاتبين من تفنن استخدام السجع. يقول ابن عبدون "كتبتُ والعهدُ يرفُّ ماؤه، ويشف ضياؤه، وتتألقُ غُرَّتُه، وتُشْرِقُ أسرَّتُه والودُ كما تدريه، لا مزيدَ على ما تعلم فيه، وإن كانت القلوب تتناجى على البعاد، بألسن الوداد، وتتراءى على الفراق، بأعين الوفاق، فربما أَحْوَجَتْ دواعي الأيام إلى المفاوضة بالأقلام، لضرورة لابُدَّ من الإفصاح عنها، والخروج شَفَاهَا منها".(٧٣)

هذا فضلاً عما كتبه الكتاب في عصور القوة من مناظرات على لسان الورود والأزهار كما حدث عند ابن برد ومجال البحث هنا لا يسع لذكر أمثلة أكثر من هذا، وعلى الرغم من كل هذا الذي عرضناه للكتاب فإن لسان الدين ابن الخطيب لا يقل قدرة على الإبداع والتفوق والتميز في مجال الكتابة بشكل عام غير الرسائل موضوع بحثنا كان الهم فيها أكثر من الإبداع، وتصوير حال الأندلس الممزق واستنهاض الهمم للإنقاذ جعل ابن الخطيب يلجأ إلى مثل هذا الإطناب وطول الفقر وكأنه يستجدي ويُلح على طلبه.

ودليلنا على أن ابن الخطيب استخدم السجع المستحسن لدى البلاغيين قوله في رسالة من رسائل المديح النبوي "من عبد هداه، ومستقري مواقع نداه".(٧٤) ومن رسالة أخرى قوله "من عتيق شفاعته وعبد طاعته".(٧٥)

(٧٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص٦٨١.

(٧٤) نفح الطيب، الجزء السادس، ص٣٦٤.

(٧٥) نفسه، ص٣٥٧.

[٢] الجناس :

أولع لسان الدين بن الخطيب بالجناس في نثره بشكل عام لما له من أثر فعال في إبراز بعض جوانب الإيقاع للنثر، فإذا كان السجع يحدث إيقاع من خلال تجانس أواخر الفواصل فإن الجناس يحدث هو الآخر نوعًا من الإيقاع الداخلي في المقطوعة النثرية. والذي عندنا أن لسان الدين بن الخطيب عمد إلى استخدام الجناس بنوعية لخدمة أغراضه، ومن ذلك قوله في مقدمة رسالة من رسائله "المقامُ الذي يُصرْخِ ويُنْجِدْ، ويتهم في الفضل وينجد، ويسعف ويسعد".(٧٦)

فالعبارة على قصرها استخدم فيها الجناس بنوعية فالتام بين يُنجِدْ، يُنْجِد". فالأولى بمعنى يُعين ويُغيث والثانية بمعنى العلو (أي المكان المرتفع عكس الاتهام) أما الجناس الناقص فبين كلمتي "يسعف ويسعد" وهو ما يُسمى بجناس التصريف ولقد عرفه العلماء بأنه "اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حروف إمام من مخرجه أو من قريب منه".(٧٧)

كقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾.(٧٨) ومنه أيضًا قول ابن الخطيب : "المتاع الدائم الطائل".(٧٩)

ومن أنواع الجناس الذي استخدمه ابن الخطيب جناس الترجيع وحده عند ابن الأثير "أن ترجع الكلمة بذاتها غير أنها تزيد حرفًا أو حرفين".(٨٠)

---

(٧٦) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٥.

(٧٧) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص١٠٧.

(٧٨) سورة الأنعام، الآية (٢٦).

(٧٩) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٥.

(٨٠) جوهر الكنز، ص٩٤.

كقول ابن الخطيب "ويهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهات".(٨١) وقوله في موضع آخر "فهو يحرص على التقرب إلى مَنْ دانه به وكلفه وظائف تكليف".(٨٢) ومنه أيضًا قوله "والصنع الذي تتبرج مواهبه تبرج العقائل".(٨٣)

ففي المثال الأول "جهة – جهات"، وفي الثاني "كلف – تكليف"، وفي الثالث "تتبرج – تبرج" والأمثلة على استخدام ابن الخطيب الجناس كثيرة جدًا مما يجعلنا نقول إنه عمد إلى إثراء أسلوبه بالإيقاع الداخلي.

[٣] الطباق والمقابلة :

التضاد يمنح الأشكال الأدبية كثيرًا من الجمال لما يعكسه من إحساس لدى المتلقي بما في الكون أضداد وهذه هي الحقيقة الكونية، هذا فضلاً عما يثيره التضاد في ذهن السامع من ارتباط المعنى بضده وما يظهره من تفاصيل لتأكيد المعاني في النص. ولقد أسهم التضاد بشكليه الطباق والمقابلة في جمال التعبير داخل الرسائل موضوع بحثنا.

ومن أمثلة استخدام الطباق قول ابن الخطيب "فيأخذ الكفر من عزماته المقيمُ المقعِد"، وقوله "يُتْهِمْ في الفضل ويُنجِد"، ومنه أيضًا قوله "والدعاء لمقام أخوتكم في البُكْرِ والأصائل".

ولقد تحقق الطباق فيما سبق بين "المقيم والمقعد" وبين "يتهم وينجد" وكذا بين "البكر والأصائل". وكذلك تحقق الجمال التعبيري من خلال استخدامه المقابلة بين الجملة كقوله في وصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم "والرضا عن

---

(٨١) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤٠٩.

(٨٢) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٨٣) نفسه، ص٤٠٥.

آله وأصحابه، الذين اقتصوا من آدابه الكريمة أَسْنَى مُقتضى وباعوا نفوسهم النفيسة من الله في نصر دينه".(٨٤)

وفي الرسالة نفسها يظهر من خلال المقابلة قيمة المهاداة التي بعثها أبو عنان لسلطان الأندلس فيقول "أن المهاداة تغرس المحبة وتُثبتها، وتُسِلُّ السخائم وتُنزعها".(٨٥)

والواضح من خلال الأمثلة السابقة من الطباق والمقابلة أن ابن الخطيب يحقق الجمال التعبيري بالإضافة إلى تحقيق الثنائية الكونية المتمثلة في الشيء وضده.

(٨٤) ريحانة الكتاب، المجلد الأول، ص٣٨٦.

(٨٥) المصدر السابق نفسه.

نموذج تحليلي لرسالة من رسائل ابن الخطيب

رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس :

(نص الرساله)

من إنشاء لسان الدين أيضًا في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة، ما نصّه :

"المقام الذي أقمارُ سعدِهِ في انتظام واتساق، وجيادُ عزّه إلى الغاية القصوى ذاتُ استباق، والقلوب على حبّه ذات اتفاق، وعناية الله تعالى عليه مديدة الرِّوَاق، وأياديه الجمة في الأعناق، ألزم من الأطواق، وأحاديث مجده سَمَر النوادي وحديث الرفاق، مقامُ محل أبينا الذي شأنُ قلوبنا الاهتمامُ بشانه، وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى والصنائع الإلهية تحط ببابه، والألطاف الخفية تُعَرّسُ في جنابه، والنصر العزيز يحفُّ بركابه، وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه، والقلوب الشجية لفراقه مسرورة بإيابه، معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومة، والفواصل المشهورة المعلومة، والمكارم المسطورة المرسومة، والمفاخر المنسوقة المنظومة، الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة، وحفظها على هذه الأمة المرحومة، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل ابن فرج بن نصر : سلام كريم، طيب برّ عميم، كما سَطّعَتْ في غَيْهَب الشدة أنوار الفرج، وهبَّت نواسم ألطاف الله عاطرة الأرّج، يخص مقامّكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله جالي الظُّلم بعد اعتكارها، ومُقيل الأيام من عِثارها، ومُزَيّن سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها، ومريح القلوب من وحشة أفكارها، ومنشئ سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها، وشدة اضطرابها واضطرارها، ومُتداركها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوّة ومُخْتارها، ولُباب مجدها

السامي ونِجارها، نبي الملاحم وخائض تيارها، ومُذْهِب رسوم الفتن ومطفئ نارها، الذي لم تَرُعْهُ الشدائد باضطراب بحارها، حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها، ووضوح آثارها، والرضى عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إحلاء الحوادث وإمرارها، وباعُوا نفوسّهم في إعلاء دَعْوته الحنيفية وإظهارها، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها، وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها، وتعرض على مثابتكم ذنوبها راغبة في اغتفارها، فإنا كتبناه إليكم – كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحي الملوك من مواهب إسعاده، وعَرَّفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده، وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده، وجعل العافية الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده – من حمراء غَرْناطة حرسها الله تعالى، وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد، وإلى كَنَف فضله الاستناد، ثم ببركة جاه نبينا الذي وضح بهدايته الرشاد، إلا الصنائعُ التي تُشام بَوارقُ اللطف من خلالها، وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها، وتَدُلّ مخايل يمنها على حسن مآلها، لله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها، ونستدرُّ عذب زُلالها، وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه، والسرور بسعادة أيامه، والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه، ما لا تفي العبارةُ بأحكامه، ولا تتعاطى حَصْرَ أحكامه، وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه، وصان سلطانكم وتولاه، فقد علم الحاضر والغائب، وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب، ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب، وأننا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعِصْمَة، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة، لا يستقر بقلوبنا القرار، ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار، تشوُّقًا لما تُتِيحه لكم الأقدار، ويبرزه من سعادتكم الليلُ والنهار، ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشتد على الأوقات ويَقْوَى، علمًا بأن العاقبة للتقوى، وفي هذه الأيام عميت الأنباء، وتكالبت في البر والبحر

الأعداء، واختلفت الفصولُ والأهواء، وعاقت الوُرّاد الأنواء، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء، ولو كنا نجد للاتصال بكم سببًا، أو نلفي لإعانتكم مذهبًا، لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض، والعدو بساحتنا في هذه الأيام رَبَض، وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء رايةً خافقة، واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة، الشيخ الأجلُّ الأوفى، الأودُّ الأخلص الأصفى، أبو محمد ابن أحبانا سنى الله مأموله، وبلَّغه من سعادة أمركم سُولَه، وقد ورد على بابنا، وتحيز إلى اللحاق بجنابنا، ليتيسر له من جهتنا القدوم، ويتأتى له بإعانتنا الغرضُ المَرُوم، فبينما نحن ننظر في تتميم غرضه، وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه، إذ اتصل بنا خبرُ قرقورتين من الأجفان التي استعنم بها على الحركة، والعزيمة المقترنة بالبركة، حطت إحداهما بمرسى المُنَكَّب والأخرى بمرسى المَرِيّة، في كنف العناية الإلهية، فتلقينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها، والأخبار التي يُغْني نصُّها عن قياسها، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر، وحركتكم المعروفة باليُمن والظفر، وأنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمِّنُ قدومُكم خائفها، ويؤلف طوائفها، ويسكن راجفها، ويصلح أحوالها، ويسكن أهوالها، وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور، والسعد الموفور، واليُمن الرائق السفور، والأسطول المنصور، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها، ونهوض طيور الرجاء من وُكُونها، واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرَّة عيونها، وتحقق ظنونها، وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان، وقلدتها قلائد السِّيَر الحسان، وما منها إلا من باح بما يخفيه من وَجْدِه، وجهر بشكر الله تعالى وحمده، وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده، واستئناس نور سعده، وكم مطل الانتظار بديون آمالها، والمطاولة من اعتلالها. وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنوّ حبيبه، بعد طول مغيبه، إنّما هو صدر راجَعَه فؤاده، وطَرْفٌ ألفه رقاده، وفكر

ساعده مراده، فلمّا بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد، واغتنمنا ميقات هذا السعد، ليصل سَبَبه بأسبابكم، ويسرع لحاقه بجنابكم، فعنده خِدَمٌ نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها، ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها، وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد، ونصل له على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد، ما يغني عن القلم والمداد، وقد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد، وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحدُّ لهم ما يكون عليه عملهم في بر من يرد عليهم من جهة أُبوّتكم الكريمة، ذات الحقوق العظيمة والأيادي الحديثة والقديمة، وهم يعملون في ذلك بحسب المراد، وعلى شاكلة جميل الاعتقاد، ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة، والموانع الكثيرة، والأعداء الذين دُهِيَتْ بهم في الوقت هذه الجزيرة، ما قدَّمنا عملاً على اللحاق بكم، والاتصال بسببكم، حتى نوفّي لأبوتّكم الكريمة حقها، ونوضح من المسرة طرقها، لكن الأعذاء واضحة وضوح المثل السائل، والله العالم بالسرائر، وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقًا، ويجعل السعد لكم مصاحبًا ورفيقًا، ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقًا، ويتم سرورنا عن ريق بتعرف أنبائكم السارة، وسعودكم الدارَّة، فذلك منه سبحانه غايةُ آمالنا، وفيه إعمال ضراعتنا وسؤالنا، هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البِدار، والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار، بسعادة ملككم السامي المقدار، وبيسر ما له من الأوطار، ويصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، انتهى".

وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس وسلاطين فاس كثيرًا ما يدسُّ لأقارب الملوك القيامَ على صاحب الأمر، ويزين له الثورة، ويعِدُه بالإمداد بالمال والعدّة، وقَصْدُه بذلك كلّه توهين المسلمين، وإفساد تدبيرهم، ونسخ الدول بعضها ببعض، لما له في ذلك من المصلحة، حتى بلغ أبعده الله تعالى من أمله الغاية.

فهي – كما نرى – رسالة طويلة تزيد على أربع صفحات من إنشاء لسان الدين بن الخطيب في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان يوسف بن نصر سلطان غرناطة، يعتذر فيها عن مقابلة سلطان فاس أثناء زيارته إلى الأندلس لوجود عوائق كثيرة تمنعه من ذلك؛ يقول "ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة، والموانع الكثيرة، والأعداء الذين دُهِيَت بهم في الوقت هذه الجزيرة، ما قدَّمنا عملاً على اللحاق بكم، والاتصال بسببكم، حتى نوفّى لأبوَّتكم الكريمة حقها، ونوضح من المسرة طرقها لكن الأعذار واضحة وضوح المثل السائر، والله أعلم بالسرائر".(٨٦)

ولقد حرص ابن الخطيب على بناء رسالته على النمط الذي اعتاده وأوضحناه سابقًا، وهي أن يبدأ بذكر "المقام" ووصفه بصفات الكرم والشجاعة والعزة وغيرها من الصفات المجيدة ثم الدعاء له بدوام العز والرعاية الإلهية والتوفيق والنصر. ويتخلل هذا التقديم عبارة "مقام محل أبينا ... السلطان الكذا ابن السلطان الكذا" يقول "المقام الذي أقمارُ سعده في انتظامٍ واتساق، وجيادُ عزه إلى الغاية القصوى ذات استباق، والقلوب على حبه ذات اتفاق، وعناية الله تعالى عليه مديدة الرِّواق، وأياديه الجمة في الأعناق – مقام محل أبينا الذي شأن قلوبنا الاهتمامُ بشأنه – السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الإلهية تحط ببابه، والألطاف الخفية تُعَرسُ في جنابه، والنصر العزيز يحف بركابه، وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه" فالجمل كما نرى جملاً اسمية "أقمار سعده، جياد عزه، الصنائع الإلهية ... الخ".

(٨٦) نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٤١٩.

وتأتي بعده هذه الجمل عبارة "سلام كريم، طيب بَرٌّ عميم، كما سَطَعَتْ في غَيْهَبِ الشدة أنوار الفرج، وهبَّت نواسم ألطاف الله عاطرة الأرج، يخص مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته". وما بين "سلام كريم ... ورحمة الله وبركاته" جاءت الجمل الفعلية على استحياء بعد "كما" التشبيهية وكانت أفعالها على الترتيب "سطعت، هبت، يخص"، ولقد خلت العبارات من أفعال الأمر لأن المقام لا يحتمل أمرًا.

أما الصور فجاءت جزئية مفردة لا تتضافر شكلاً في تشكيل لوحة أو صورة كلية بقدر ما تمثله من صورة كلية في المضمون، فكلها تتضافر لإظهار قيمة مقام سلطان فاس مثل "أقمار سعده في انتظام، جياد عزه إلى الغاية القصوى ذات استباق، النصر العزيز يحف بركابه، سلام كريم، كما سطعت في غيهب الشدة أنوار الفرج".

ثم يأتي الجزء الثاني أو المقطع الثاني من الرسالة ويبدأ بقوله "أما بعد حمد الله" جالى الظلم بعد اعتكارها، ومقيل الأيام من عثارها، مُزين السماء، مريح القلوب من وحشة أفكارها ... إلى قوله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صلى الله عليه وسلم صفوة النبوة ومختارها ولباب مجدها ... الخ".

وما بين حمد الله ... والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ست جمل اسمية مبتدأة باسم فاعل "جالي، مقيل، مُزَين، مريح، منشئ، متداركها"، وفي أسماء الفاعل تعظيم وتنزيه لله الكريم، وكل أسماء الفاعل الواردة تُنبئ عن شدةٍ وعُسر وعن رجاء فرج ويُسْر.

وبعد السلام على النبي صلى الله عليه وسلم جاءت صفاته صلى الله عليه وسلم التي تركز على دوره في إزالة الفتنة وكشف الغمة والصبر حتى بلوغ كلمة الله. يقول "محمد رسول الله صفوة النبوة ومختارها، ولباب مجدها السامي

ونجارها، نبي الملاحم، وخافض تيارها، ومذهب رسوم الفتن ومطفئ نارها، الذي لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها، حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها ووضوح آثارها".

ومازال لسان الدين ابن الخطيب يطلب اسم الفاعل وينأى عن الجملة الفعلية وكأن الجمود أصاب الحياة حوله فلا حراك لها، ولا أمل في قيامها.

وفي هذا الجزء أو هذا المقطع تعرض الكاتب بعد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وصف صحابته مستخدمًا الجمل الفعلية حيث جاء بجملتين مكثفتين يقومان على التضاد التعبيري تصفان أداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه من أجل إعلاء كلمة الله فقال "والرضى عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إجلاء الحوادث وإمرارها، وباعُوا نفوسهم في إعلاء دَعْوته الحنيفية وإظهارها".

وقد مدح ابن الخطيب التمسك بالعهد في عصر ضاعت فيه العهود، وكأنه يشكو التلون وضعف الثبات على الحق ولذلك يمدح ثبات الصحابة والآل الكرام وقت الكرب أو النصر. وما كان ذلك إلا لأنهم كما قال "باعوا نفوسهم ابتغاء نشر الدين الحنيف وإظهاره" ثم يدلف الكاتب إلى المخاطب بالرسالة فيكيل له الدعاء "باتصال السعادة واستمرارها، وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها".

ولقد أطال الكاتب في هذا الموقف، فاستحوذ منه على ما يقرب من صفحة كاملة يسوق على لسان مَلِكَه آياتُ الثناء والعرفان، ويدلل على معاني الحب والإخلاص.

وقد جاء بالعبارة التي ارتكز عليها في تلك الرسائل كجملة اعتراضية في خضم الثناء والدعاء للمخاطب فقال "فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة حرسها الله

تعالى ..." وقد توسط بين لفظ الكتابة ولفظ المكان ثلاثة أسطر على هيئة جمل اعتراضية كلها دعوات وتحميدات للمخاطب.

وقد ألمح الكاتب بأسلوب رقيق إلى سوء حال غرناطة وذلك حين قال على لسان أميره "وإننا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعِصْمَة، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة، لا يستقر بقلوبنا القَرَار، ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار، تشوُّفًا لما تُتيحِه لكم الأقدار، ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ...".

فهذا التعبير لا يقوله إلا كاتب قدير، فهو يشير إلى سوء الحال ويعفي مخاطبه من شر أو بلاء، كما يسند إليه عصمة بلاد فاس من الخطر بعناية الله ووقايته ونعمته "صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة".

وحين نكون في وسط وسطورها تستقبل آذاننا وأعيننا أول كلام صريح يعبر عن المضمون والمغزى من الكتابة وذلك حين يقول "وفي هذه الأيام عميت الأنباء، وتكالبت في البر والبحر الأعداء واختلفت الفصول والأهواء، وعاقت الوُراد الأنواء، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء، ولو كنا نجد للاتصال بكم سببًا، أو تلقي لإعانتكم مذهبًا، لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض، والعدو بساحتنا في هذه الأيام رَبَض".

والصور السابقة تؤكد على ما قصده الكاتب من مغزى ومقصد، فالعدو مثل السبع "ربض" والصيغ "تكالبت، واختلفت، وعاقت، وعميت" كلها صيغ ماضية تعبر عن حالٍ لزم، وهم نزل، وساحات امتلأت بالسباع المستعدة للهجوم والافتراس.

ثم يصرح الكاتب بوصول "خديم" المخاطب إلى غرناطة "وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء آية الإخلاص، وقد ورد على بابنا، وتحيز إلى اللحاق بجنابنا، ليتيسر له من جهتنا القدوم".

وكذلك أرسل أمير فاس "قرقورتين"(٨٧) حطت إحداهما بميناء المَرية والثانية بمرسى المُنَكَّب، وهما كما يتضح مقدمة مسير ملك فاس إلى بر الأندلس نَجْدَةً لهم واستجابة لاستغاثاتهم ويتضح ذلك من قول الكاتب "فتلقينا من الواصلين فيهما – أي القرقورتين – الأنباء المحققة بعد التباسها، والأخبار التي يُغْنِي نصُّها عن قياسها، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر، وحركتكم المعروفة باليمن والظفر، وأنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قدومكم خائفها، ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها، ويصلح أحوالها، ويسكن أهوالها، وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور، والسعد الموفور، واليمن الرائق السفور والأسطول المنصور".

وهنا نلمح ظهور الجمل الفعلية وكنا قد افتقدناها في الرسالة كثيرًا، فهي لا تحضر إلا وقت الحركة والفعل وبذل الجهد، ويتضح ذلك من أثر انتقال سلطان فاس إلى الأندلس كما يراه ابن الخطيب حيث يرى مع قدومه أمنًا للخائفين، فالجميع كان في حالةٍ من الخوف بما فيهم ملك غرناطة نفسه، هذا بالإضافة إلى ما بين الطوائف من تناحر، وكان ذلك سببًا رئيسًا لسقوط مدن الأندلس. وقدوم سلطان فاس تأليفًا للمتناحرين وتسكينًا للمرتعدين، وإصلاحًا لأحوال البلاد وسكينة لشدة الخطوب والأهوال.

(٨٧) القرقورة : السفينة العظيمة الطويلة.

هذا الأثر يسوقه ابن الخطيب ببراعة حيث تلخص هذه الجمل القليلة الحال الذي صار إليه الأندلس من خوف وانتشار فتن، وانشقاق للصف، وعموم البلوى والخطوب التي تتطلب التدخل من كل قادر غيور على ضياع بلاد عاش فيها العرب والإسلام، على أنهار الكوثر ثم انتُزعوا منها كانتزاع الشوك من الصوف المبلل.

ونرى ابن الخطيب يعبر على لسان أميره عن سعادته البالغة بقدوم سلطان فاس وإقامته ببر الأندلس ولقد أرسل يوسف بن نصر إلى سلطان فاس مع (خديمه) يطلب حوائج يرجو قضاءها ويتمنى تمامها، ويوصي ولاة السواحل بالقيام بخدمته والإسراع إلى عونه ومساعدته.

ثم يظهر ابن نصر مدى تمنيه اللحاق بسلطان فاس وملاقاته لولا العوائق. يقول الكاتب "ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والأعداء الذين دُهِيَتْ بهم في الوقت هذه الجزيرة ..."، فقد منعت العوائق والموانع والأعداء تلاقي أمير غرناطة مع سلطان فاس، وقد أقلتهم أرض الجزيرة ما بين "المرية والمنكب" وغرناطة، مما يؤكد ضعف الجزيرة وهوانها وما آلت إليه حالها.

وفي النهاية يتضح لنا الغرض من هذه الرسالة وهو الاعتذار عن عدم التمكن من الانتقال من غرناطة إلى حيث نزل سلطان فاس. يقول ابن الخطيب "... لكن الأعذار واضحة وضوح المثل السائر، والله العالم بالسرائر ...".

ولقد ختم الرسالة بسيل من الدعوات المعبرة عن شعور ابن الخطيب ومليكه الذي يتمنى لسلطان فاس التوفيق والسداد فيما خرج من أجله وأن تكون كل أخبارهم سارة، وبعد فإن هذه الرسالة مرآة مجلوة عن بلاد الأندلس في عصر ابن الخطيب، ترسم صورة اجتماعية لمعاناة الناس وخوفهم وانقسام المجتمع وتفننه، كما ترسم صورة سياسية لخريطة بلاد الأندلس، وقد عجز ملك غرناطة عن الوصول

إلى "المَرِية" أو حصر "المنكب" وكانت كلها تحت يد ملك واحد أيام المنصور بن أبي عامر حتى جاء ملوك الطوائف، وظهرت الفتنة تطل برأسها على بلادٍ كم بكى الأوربيون عليها وبذلوا كلَّ نفيسٍ وغالٍ في سبيلِ استردادها من يد الإسلام والعرب.

وكذلك تقدم الرسالة صورة للكتابة الديوانية في هذا العصر في الأندلس وقد تأثرت بضعف الحال فاستغرقت الرسالة المدائح والدعوات وغابت الجملة الفعلية في أحيان كثيرة، ولقد حضرت الجملة الاسمية بقوة مما يعبر عن الجمود والضعف، فكم يؤذي مشاعرنا استهلاك طاقة أديب بارع وعالم جليل وموسوعي متمكن كابن الخطيب في عبارات الثناء والدعاء وطلب النجدة، وقد كان الكُتاب في عصر القوة يكتبون المناظرات على لسان الورود والأزهار مثل رسائل ابن برد أو يكتبون النوادر والمقامات تعبيرًا عن حياة جميلة ووطن مستقر ترفرف عليه راية الوحدة والقوة يأخذ من الأعداء الجزية ويسترضونه بالهدايا والتحف الثنية.

إننا مع هذه الرسالة رأينا الضعف يحيط بالملوك فكم يبدون قليل الحيلة، نفوسهم كالهواء من الخوف، قد تجمدت عقولهم من الأهوال، لا يرون الأمل إلا عبر المحيط يأتيهم ولا يستطيعون السعي إليه فقد ران على قلوبهم الذل وصدقت أم آخر ملوك غرناطة حين سلم المدينة وجاءها يبكي فقالت له ...

ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا

لم تحافظ عليه مثل الرجالِ

هذا وتتميز ألفاظ الرسالة بالسهولة فلا تحتاج إلى الرجوع إلى المعجم، والمعاني في الرسالة واضحة وقد غلب على الجمل القصر والارتباط بقوة مع المعاني فترى الجمل تنجدل بقوة في ضفيرة المعنى، كذلك يجيد الكاتب استخدام

الترادف بسهولة والسجع بكثرة والجناس تسري نماذجه تمامًا وناقصًا في كل ثنايا الرسالة، ونرى في الرسالة ثقافة الكاتب وارتباطه بتراثه العربي والإسلامي، والتناص مع معاني القرآن والأحاديث النبوية حاضر وملحوظ وخاصة عند ذكر الكاتب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولقد خلت الرسالة من الشعر المضمن وكأن الهم كان أكبر وأوضح من الحاجة إلى الشعر بتلميحاته وصوره وخيالاته، وعلى مثل هذا النمط كان أسلوب كاتبنا في رسائله موضوع بحثنا كما أوضحنا.

الخاتمـــة

وبعد فإنني حاولت فيما سبق أن أدرس رسائل لسان الدين ابـــن الخطيـــب السلطانية دراسة تحليلية، وتتلخص النتائج التي توصلت إليها فيما يلي :

١- عاش ابن الخطيب في العصر الغرناطي في القرن الثامن الهجري.

٢- هيأت له فصاحته وموهبته الأدبية الارتقاء إلى منصب الوزارة فاســـتوزره السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل ثم ابنه الغني بالله محمد.

٣- شهد له القدماء والمحدثون بالبلاغة والفصاحة.

٤- ترك ابن الخطيب تراثًا عظيمًا من التأليف في مجالات العلم المختلفة فـــي "الطب، والسياسة، والتصوف، والشعر، والكتابة".

٥- ثبت بناء الرسالة السلطانية عنده على نمط واحد لم يتغير بمـــا فـــي ذلـــك العبارات التي ارتكز عليها، كذكر المقام، من حمراء غرناطة ... . وكـــذا ألفاظ التخلص للانتقال من نقطة إلى نقطة.

٦- رسمت تلك الرسائل صورة العصر الذي كُتبت فيه فأوضحت مدى معانـــاة الناس وخوفهم وانقسام المجتمع وتفتته، كما رسمت صورة سياسية لخريطة بلاد الأندلس، فقد عجز ملك غرناطة عن الوصول إلى المرية أو حصـــن المنكب لملاقاة ملك فاس.

٧- قدمت الرسائل صورة للكتابة الديوانية في هذا العصر في الأنـــدلس فقـــد تأثرت بضعف الحال فاستغرقت المدائح والدعوات والثناء وغير ذلك.

٨- حرص ابن الخطيب على أن يبرز مدى تمكنه اللغوي، فبدا مالكًـــا للغتـــه واقفًا على أسرارها فاستدعى من معاجمه ما يتوافـــق مـــع موضـــوعاته.

وفضلاً عن ذلك فقد نوع في أساليب وجمله ما يتوافق مع المعاني، فترى الجمل تنجدل بقوة في ضفيرة المعنى.

٩- غابت الجمل الفعلية كثيرًا وحضرت الجمل الاسمية بقوة تعبيرًا عن الجمود والضعف.

١٠- خلت الرسائل من تضمين الشعر إلا في موضعين فقط وكأن الهم كان أكبر من الحاجة إلى الشعر وصوره وخيالاته وتلميحاته.

١١- عُني ابن الخطيب بالسجع في بناء رسائله وسلك في تقيده طرائق مختلفة مسايرًا في ذلك الذوق البديعي السائد عند الكُتاب شرقًا وغربًا.

١٢- استخدم الجناس ووظفه لخدمة أغراضه، وآثر لجناس الناقص على التام.

١٣- اعتمد على الطباق والمقابلة في إبراز معانيه وتأكيدها.

١٤- اهتم بالصورة الفنية اهتمامًا كبيرًا واتسمت عنده بالدقة والتكرار والتشخيص كما جاءت ممتدة في لوحات فنية وجاءت بعضها جزئية مفردة.

وتدل رسائل ابن الخطيب السلطانية وإن كانت تمثل جزءًا قليلاً من إنتاجه على أنه يستحق المكانة التي تبوأها في عصره بوصفه من أبرز الكُتاب الذين أنجبتهم الأندلس من الفتح حتى السقوط.

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رئيس كتاب الأندلس، د. فوزي سعد عيسى، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في الشرق والأندلس، لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق : د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، مكتبة المثنى ببغداد.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي.
- بلاغة العرب في الأندلس، لأحمد ضيف، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
- تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق : د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- جواهر البلاغة، المعاني والبيان والبديع، للسيد أحمد الهاشمي، تحقيق : محمد التويجي.
- جوهر الكنز، لنجم الدين بن الأثير، تحقيق : د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
- ديوان ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن القضاعي البلانسي)، قراءة وتعليق : عبد السلام الهراس، جامعة الملك سيدي محمد عبد الله، فاس، المغرب، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، تحقيق : د. إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- ريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب، لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- الشعر العربي المعاصر "قضاياه وظواهره الفنية المعنوية"، لعز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
- الصيب والجهام، والماضي والكهام، للسان الدين بن الخطيب،
  - تحقيق : د. محمد الشريف قاهر، نشر في الجزائر ١٩٧٥م.
  - تحقيق : محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، تحقيق : عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم الكلاذي، ب.ت.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، مطبعة نهضة مصر، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الرابع، تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق : د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
- النقد الأدبي الحديث، لمحمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.